الاسلام والمدنية والعلم

للاستاذ محمد أحمد الغمراوى

— ١ —

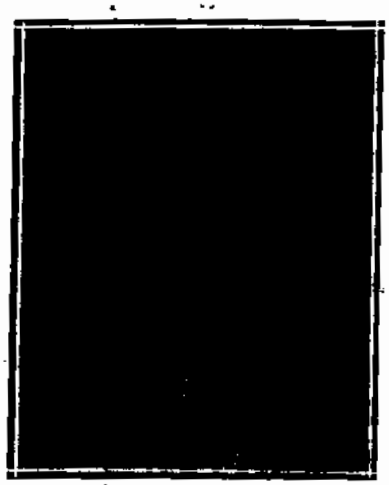

هذا العدد الممتاز ينظر فى أثر الاسلام فى المدنية ، وقد يسبق الى النفس من هذا أن المدنية غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل أحدها الدين ، وأننا اذ أردنا أن نحتفل فى (الرسالة) بالحادث الأكبر ، حادث الهجرة ، الذى ثبت الله به الدين الكامل ، أحببنا أن نثنى على الاسلام بالاشادة بنصيبه فى تشييد صرح المدنية التى هى أعم وأشمل ، وقد يقال أكمل ، من الاسلام ؛ ولو كان هذا هو المراد ، أو كان هذا ينتج من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو ، لكان احتفالنا احتفالا معكوسا ، ولكانت اشادتنا بما نريد أن نشيد به ذما له وانتقاصا . لكن ليس الغرض من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو هو الاشادة بالمدنية ثم بالاسلام بالتبع ، انما الغرض هو شبه دراسة اجتماعية مرماها إن أمكن تحديد الصلة بين هذه المدنية القائمة وبين الاسلام ، أو بالأحرى تحديد ما هنالك من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة كما نراها اليوم والمدنية الغائية كما جاء بها الاسلام

وفى الحق أن هذه المدنية بعيدة جدا عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات قد جاد بتحقيقه الزمان ، فان المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فى الواقع جزءا من الفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وآية ذلك أن يكون فيها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء ، وهذا لا يتحقق لأية مدنية من المدنيات الا اذا قامت على الحق فى جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس أفرادا وجماعات

وشيوع الخلل والاضطراب فى النواحى الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل فى هذه النواحى ، ودليل بُعد هذه النواحى عن الفطرة . لكن اذا كان الباطل قد شاع فى أكثر نواحى هذه المدنية فان هناك ناحية واحدة قد عزت على الباطل أن يكون له فيها مقام ، ودانت للحق فهو فيها الحاكم المطاع . تلك هى الناحية العلمية التى أثمرت للمدنية هذه القوى المادية التى فتن بها الناس فظنوا هذه المدنية أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم تقدر عليه المدنيات قبلها من طيران فى الهواء وغوص فى الماء ، وتسخير للبحار والكهرباء ؛ وغفلوا عن أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة ، ولكن إحسان استعمال القوة فى سبيل الحق : سبيل الله ، وإلا انقلبت تلك القوى على المدنية المغترة فزلزلتها وصيرتها الى ما يصير اليه الباطل من الزوال

هذه الناحية العلمية هى فخر هذه المدنية الحديثة ، بها ستذكر فى المدنيات اذا ذكرت المدنيات بأنبل ما فيها وأفضله وأصدقه ، بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث . ثم هى الناحية الواحدة التى اتحدت فيها هذه المدنية بالفطرة ، واذ كان الاسلام دين الفطرة فهى الناحية الواحدة التى تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الاسلام

هذه دعوى قد تحتاج عند بعض الناس الى تفصيل وتحديد : أو — ان شئت — الى دليل وبرهان مادام الناس ليسوا كلهم قد درسوا العلم ، وما دام من درسوا العلم ليسوا كلهم يعرفون شدة الصلة بينه وبين الاسلام

أما إن الاسلام يؤيد العلم عامة ويحض عليه ويكبر منه فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فى العلم . فالذى يقرأ من الحديث الصحيح مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ، والذى يعرف ما فعله الرسول صلوات الله عليه بعد بدر من جعله فداء بعض فقراء الأسرى تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة ، يعرف من غير شك أن الاسلام هو دين العلم والتعلم . فاذا تلا من كتاب الله مع ذلك مثل قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (شهد الله

أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ، والآيات الكثيرة التي جعل الله سبحانه العلم فيها حكما بين النبي ومجادليه مثل قوله تعالى على لسان نبيه : (إيتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) — إذا تدبر الانسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث أدرك أن العلم على اطلاقه لم يُكبَّر في دين من الأديان كما أكبر في الاسلام ، وأن ديناً لم يلزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الاسلام المسلمين

هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعاً التأييد التام للعلم بمعناه الخاص : معناه الطبيعي المستعمل فيه اللفظ اليوم ؛ لكن ليس هناك من حاجة الى مثل هذه الحجة على قوتها في اثبات أن العلم بمعناه الحديث مطلوب مأمور به في الاسلام ، فان الآيات القرآنية الكثيرة الواردة في الحض على تطلب آيات الله في الكون وتعرف أسرار الخلق هي في الواقع توجيه للعقل الى مجالات العلم الذي يسميه الناس بالعلم الطبيعي ، بل هي أوامر من الله بطلبه ، لأن آيات الله في الكون التي ندبت تلك الآيات القرآنية الكريمة إلى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التي هي مطمح العلم ومرماه . فأنت إذا قرأت مثل قوله تعالى : (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي الليلَ النهارَ ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوانٌ وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ) (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) — إذا قرأت هذا وأمثاله في القرآن لم تشك في أن العلم الحديث قرآني في موضوعه ، إذ هذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار هذه الظواهر الكونية التي نبه اليها وأمر بالبحث فيها القرآن

فاذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى هل ورد في بعضها مادة (علم) اللغوية ، وجدت أن هناك أكثر من آية وردت فيها هذه المادة إن لم يكن في صيغة المصدر ففي صيغة مشتقاته ، مثل قوله تعالى من سورة الأنعام (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون) وقوله سبحانه من سورة الروم : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين) وإذن فهذا العلم الطبيعي ليس فقط قرآنيا بموضوعه بل هو قرآني باسمه ، واذا كان الناس قد اصطلحوا اليوم على تلقيبه بالحديث فقد آن لهم أن يتذكروا أن فاطر الفطرة سبحانه قد أمر به الانسان لما أنزل القرآن هدى للناس كافة منذ نيف وأربعة عشر قرنا من الزمان .

وفي الحق أن الانسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التوكيد في القرآن ، ثم من تراخي المسلمين برغم ذلك في طلب هذا العلم ، ولو للانتفاع به في تفسير ذلك الجزء من القرآن . إن الآيات الواردة لتلفت الانسان إلى أسرار الفطرة وتحثه على تفقهها ، لا تكاد تقل إن قلت عن خمس آيات القرآن ، ولم تلق ناحية من نواحي المدنية مثل هذا التوكيد في الاسلام إلا ناحية الأخذ بالعدل والاحسان في المعاملة ؛ فكأن المدنية في الاسلام شطران : شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل ، ومن وراء ذلك كله مخافة الله ومحبته ، لا غنى لأهل المدنية عن هذين إن أرادوا لها البقاء . وعلى كل حال فان حث الانسان في نحو خمس القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسة من ثمرات . وهذا لا يقلل شيئاً من شأن العلم في الاسلام بل يزيده ، ثم هو أبلغ في الدلالة على أن العلم في الاسلام جزء من الدين .

على أن أمر التوافق بين العلم والاسلام قد جاوز الاجمال الى التفاصيل : جاوز قرآنية الموضوع والاسم الى قرآنية الروح والطريقة . فروح العلم وطريقته منطبقة تماما على ما جاء به القرآن

فأما روح العلم التي هي في صميمها التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك به والتعاون عليه ، فهي من روح الاسلام من غير شك ، إذ الاسلام كله ليس إلا أمرا بالحق ومجردا له وجهادا فيه ، وما لقيه الحق من الاكبار في العلم لا يزيد شيئا عما لقيه الحق من الاكبار في القرآن

وإذا كان هناك فرق بين الاثنين فهو لا يتعلق بذاتهما ولكن بامتداد سلطانهما ؛ فروح العلم مقصورة طبعا على الميادين التجريبية

التي قصر العلم عليها نفسه ؛ لكن روح الاسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الانسان العلمي منها والاجتماعي ، ما يمكن اخضاعه للتجارب العلمية منها وما لا يمكن

وأما طريقة العلم في طلب الحق فاليها يرجع فضل العلم في هذا العصر على مثله في سابق العصور . لقد كان من بين علماء تلك العصور من يحبون الحق ، ويعملون له ، ويحرصون عليه ، كما يحبه ويعمل له ويحرص عليه علماء اليوم ، لكنهم لم يوفقوا الى نظام علمي شامل يضمن الوصول الى الحق ويضمن على الأخص عدم قبول باطل على أنه حق . فهذا النظام الذي يحسن التمييز بين الحق والباطل ، ويضمن من نفسه أن ينفي الباطل ويثبت الحق ، هو الفارق المميز بين العلم الحاضر والعلم الماضي ، وهو المفخرة الحقيقية للعلم الحديث

هذا النظام لم يضعه شخص ولم تضعه هيئة ، ولكن نشأ بالتدريج بنشأة العلم الحديث حين أخذ العلماء يجعلون وجهتهم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة ، وحين أرادوا في تلمسهم سنن الفطرة أن يتجنبوا مناشئ الخطأ في العلم القديم ، ويصححوا الوجهة في العصر الذي ظهر تطور العلم فيه

وللمقارنة بين الأصول التي قام عليها هذا النظام والأصول التي تناظرها فيما جاء به الدين يحسن تقسيم أصول النظام العلمي إلى قسمين : قسم يتعلق بنفس الفطرة التي ستكون موضوع العلم ، وقسم يتعلق بطريقة النظر والبحث عن أسرار تلك الفطرة

فأما ما تعلق بنفس الفطرة فقد وجد العلماء أنفسهم مضطرين إلى القول بأصول ثلاثة : أصل استقلال الفطرة ، وأصل اطراد الفطرة ، وأصل انسجام الفطرة أو استحالة الخلاف بين جزئياتها . فأصل استقلال الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الانسان ، فلا يستطيع ساحر ولا كاهن أن يغير من مجراها أو يعدل من قوانينها ، ولا تتغير هي تأثراً بما يجري لأي إنسان ؛ وأصل اطراد الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الزمان ، فما يثبت من سننها في وقت فلابد أن يكون موجوداً من قبل ، وسيظل موجوداً في المستقبل ، لا يلحقه تبديل ولا تغيير ؛ وأصل انسجام الفطرة يعلن استحالة التناقض بين الحقائق ، فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان وكيفما ظهر ، في الأرض أو في السماء ، وما يناقض حقاً إذن فهو باطل يجب أن ينبذ ولا ينظر اليه

فأما الأصل الأول فكان ضرورياً لصيانة العلم وتحرير العقل من دجل الدجالين ، وإعداده لطلب الحق وتلقيه ، وهو أصل ليس هناك اليوم من يجادل فيه . وأما الأصلان الآخران فهما كما ترى ضروريان لوجود العلم واطراد نموه ، لا يمكن بدونهما نظر ولا بحث ولا استقراء ولا استدلال . لكن من العجيب أن العلم عاجز عن إثباتهما . إذ أقصى ما يستطيع أن يقوله هو أنه اعتمد عليهما قروناً معدودة فبررت النتائج الباهرة التي وصل اليها ذلك الاعتماد ، فهو لذلك سيستمر معتمداً عليهما إذ ليس هنالك ما يدعو إلى الشك فيهما فيما يتعلق بالمستقبل أو الماضي . لكن الفلسفة لا تقنع من العلم بهذا الجواب ، وتواجهه بما فيه من ضعف ، وتزعم له أن نجاح الاعتماد على ذينك الأصلين قروناً لا يثبت صحتهما إلا في تلك القرون ، وأما فيما قبل ذلك وما بعد ذلك فلا يستطيع العلم أن يجزم بصحتهما ، وإذن فلا يحق له أن يطمئن كل الاطمئنان اليهما . لكن العلم يمضي على اطمئنانه لا يبالي بما توجهه الفلسفة إلى أصليه هذين من نقد وتشكيك ، لأنه من ناحية لا يرى فائدة عملية في الاصغاء إلى هذا النقد ، ولأنه من ناحية أخرى يرى وجوده ذاته منوطاً بصحة هذين الأصلين ، لو شك فيهما لحكم على نفسه بالفناء

ومن البديهي أن الحكم بين العلم والفلسفة في هذه القضية لا يستطيعه إلا الذي بيده أمر الماضي والمستقبل ، فاطر الفطرة وخالق الخلق سبحانه ، وقد حكم سبحانه للعلم منذ أنزل القرآن

هذان الأصلان وما يتعلق بهما يقررهما القرآن في غير تردد ولا ابهام ؛ ومبدأ هذين الأصلين أصل آخر لم يقرره العلم إلا ضمناً ، ولو قرره لما سلمته له الفلسفة ، لأنه أصعب اثباتاً حتى من ذينك الأصلين ؛ ذلك هو أن هذا الكون قائم كله على الحق ، فانه لا بد من تقرير ذلك ولو لحظة حتى يمكن بعد هذا أن يقال إن كان الكون سيستمر على ذلك أو لا يستمر ؛ وأنى للعلم أو الفلسفة تقرير ذلك بغير الافتراض والظن الذي لا يستند إلى برهان . لكن الله فاطر الكون قرر للانسان الحق فيما لا يستطيع أن يثبته الانسان ، قرر في غير ما آية أن الكون قائم على الحق (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) . (خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى ، ألا

الغفار) . وقرر سبحانه أنه لا تبديل لسننه فى الخلق ولا تحويل (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله) ، (فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ، (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . وهذا المبدأ ، مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل ، الذى أعلنه الله سبحانه للناس فى القرآن ، مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، ما تطاول العلم الى بحثه فى ميدان المادة ، وما لم يتطاول إلى بحثه فى ميدان الاجتماع ، كما هو مقتضى سياق تلك الآيات فى القرآن

أما أصل انسجام الفطرة فقد قرره الله سبحانه حين قال جل وعلا : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) . وارتفاع التفاوت يستلزم حتما ارتفاع التناقض الذى هو أكبر التفاوت ؛ وقد تقرر نفس الأصل فى صورته الأخرى : صورة انتفاء الباطل بالحق فى قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) . فالاسلام يؤيد العلم تأييدا تاماً حين تخون العلم قدرته ، وتضعف حجته . ويستطيع العلم فى يقين المسلم أن يمضى فى سبيله مطمئناً على وجوده ، غير مبال باعتراض الفلسفة ، اعتمادا على ما أعلنه رب الفطرة للناس فى القرآن

أما أصل استقلال الفطرة عن الانسان فقد أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس فتحدث الناس أنها كسفت لموت ابراهيم ، فخطبهم صلى الله عليه وسلم فيما روى البخارى خطبة قال فيها : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا » ؛ ثم زاد القرآن الكريم ذلك الأصل تقريرا وتوضيحاً فى قوله تعالى : (أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . فأنت فيما يتعلق بأصول الفطرة ترى تمام الاتحاد بين ما قام عليه العلم وما قرره الاسلام

(يتبع) محمد أحمد الغمراوى

العقيدة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

غذاء القلب وطمأنينة الروح ، ملجأ الضعيف وسلاح القوى . هى حقيقة امتزجت بحلاوة الخيال ، أو خيال لبس أحياناً ثوب الحقيقة . وما هذا الخيال وتلك الحقيقة إلا صرح كثيراً ما شدناه بأنفسنا لأنفسنا كى نكمل ما فى عالم الواقع من نقص ، ونحقق بعض ما نصبو إليه من ميول وآمال . فان ما فينا من قلب خافق وعواطف متأججة ، ينزع الى أمانى ورغبات لا حصر لها . ولذتنا فى تصور هذه الأمانى وسعادتنا فى السير وراءها . فان لم نجد السبيل الى تحقيقها حيث نرى ونسمع رسمنا لها مملكة سامية فوق مملكة الحس والمشاهدات ، وآمنا بها إيماناً لا يقل عن إيماننا بالمرئيات والملموسات . على أن ما فينا من عقل يحلل ويبرهن ويعلل يدفعنا الى الاعتقاد والاستمساك بآراء نتعصب لها وندين بها . فالعقيدة حاجة إنسانية وأثر من آثار قوى النفس على اختلافها . وهى فوق هذا ضرورة اجتماعية وركن هام من أركان التعاون والارتباط . ولا يمكن أن تتصور جمعية بشرية لا يخضع أفرادها لمبدأ واحد وعقيدة مشتركة . واتحاد الدين والعقيدة من أول الخصائص التى يتميز بها الشعب والأمة . وليست العقيدة المتحدة مجرد رمز وشارة للأمة فحسب ، بل هى مصدر تأثير كبير وقوة لا نهائية . هى مبعث حرارة تدفئ القلوب فتدفعها الى الأمام وتملؤها بالأمل والرجاء . ومستودع كهربائية عظمى يرسل فى الأفراد ما يرسل من موجات سالبة وموجبة فيتجاذبون ويأتلفون ، ويلتقون عند غاية واحدة وغرض أسمى . وإنا لنسير فى الحياة غالباً بدافع من عقائد مختلفة بين دينية ووطنية وعلمية